# حقيقة الإعجاز في القرآن الكريم

أ.د/ عبد الجليل عبد الرحيم علي(*)

## مقدمـــة:

الحمد لله الذي جعل كتابه الكريم مصدر كل خـير ورحمـة، وعلـم ومعرفـة، ونـور يبدد كل الظلمات، وروح تتجـاوز كـل التحديـات، وصلوات الله وسـلامه علـى سـيدنا محمد مجلى حقيقة القرآن، ومشكاة كل ما حواه من الأنوار والأسرار، التي كانت منبـع العلوم والمعارف الدينية ومصدر الحكم والأحكام ومظهر الأخلاق التي كانت أعظم خلعـة كساه الله بها حققت له المرتبة الرفيعة في العبودية قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَانِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾[1].

**أما بعد:**

فالإعجاز في القرآن الكريم متعدد الجوانب كثير الوجوه.وإذا كان الإمام السيوطي في معترك الأقران في وجوه إعجاز القرآن قد ذكر ما يزيد علـى أربعـين وجـها، فـإن وجـوه الإعجاز في الحقيقة تزيد على ذلك بكثير. ففي كل يوم تسـطع فيـه شمـس أنـواره علـى قلوب المطهرين تتراءى لهم كنوزه الدفينة، و خواصـه العجيبـة، وهدايتـه الفـذة في كـل مجالات الحياة.وما يمدهم به من القوى والمواهب، ويرفعهم إليه من الدرجات والمقامـات ما يخلب الألباب ويثير العجب العجاب.

وبالرغم من أنه يوجد في كـل وجـه مـن وجـوه الإعجـاز المطروقـة مـن الجديـد مـا يستحق المزيد من البحث والتنقيب، إلا أنني آثرت في بحثي هذا أن أتناول مـن الوجـوه

---

(*) أستاذ التفسير بكلية الشريعة ـ الجامعة الأردنية ـ الأردن.

الجديدة ذات الأثر الأهم والوجه الذي يكاد يكون جامعا لكل وجوه الإعجاز ما ظهر منها، وما سيظهر.

وهو الصفة الغالبة على الكتاب في جوهره وحقيقته التي أبان عنها القرآن في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٢].

وهو ما يمكن أن نطلق عليه: "**الإعجاز الروحي في القرآن الكريم**"

وسأتقدم بين يدي الموضوع بمدخل أكشف فيه عن معنى كلمة الإعجاز في اللغة والاصطلاح، وبيان سبب عدم ورودها في القرآن الكريم منسوبة إليه، وكذلك المعجزة.

## مدخل:

معنى كلمة الإعجاز في اللغة والاصطلاح: أصل الكلمة في اللغة يدل على الضعف.

يقال: عجز، يعجز، عجزاً، فهو عاجز أي ضعيف.

ويقال: أعجزني فلان، إذا عجزت عن طلبه وإدراكه[٣].

قال الراغب: صار العجز في التعارف اسما للقصور عن فعل الشيء وهو ضد القدرة.

قال تعالى: ﴿يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾[٤].

وأعجزت فلاناً، وعجّزته، وعاجزته: جعلته عاجزاً[٥].

قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾[٦].

فكلمة (إعجاز) مصدر أعجز تفيد إيقاع من تحداهم القرآن في العجز. ولما لم يكن هذا غاية من نزول القرآن الكريم، ولا مطلبا له لم نجد لهذه الكلمة مضافة إلى القرآن ورودا في سوره وآياته.

وكذلك لفظ المعجزة؛ لأن البشر وكل المخلوقات جميعا عاجزون بالفعل عن أن يحيطوا بشيء من العلم والقدرة خارج نطاق ما آتاهم الله، وخصهم به من فضله وكرمه.

وقد وجدنا العكس تماما في الغايات التي يحملها القرآن في نزوله؛ من إخراج الناس من العجز إلى القوة ومن الجهل إلى العلم والمعرفة، وأنه ينشر عليهم من أنواره وأسراره ما يزكيهم، ويطهرهم به، ويوصلهم إلى درجات الكمال حيث يعكس عليهم آدابه ويحليهم بمكارم أخلاقه.

من أجل ذلك استعمل القرآن كلمة الآية والبرهان.

ولا يوجد أفصح في الفصاحة، ولا أبلغ في البيان حين نجد الكلمة في الاستعمال تفصح عن المراد، وتبلغ كبد الحقيقة، في أيسر عبارة وأجلى برهان.

فاستعمال كلمة "آية" أفصحت بجلاء تام عن هذه الحقيقة، وهي على الرغم من شمولها لكل ما يصدر عن الذات العلية من مظاهر الأفعال والأسماء والصفات، ودلالتها الواضحة على كشف الغاية منها، وهي هداية الخلق إلى الحق؛ لأنها معالم هداية ومظاهر تأييد كرما وعناية.

فإنها تظل محلا للعرض والعطاء، ومجالا للتحقق بشهود ما تحمله من كنوز القدرة، وكرم العطاء.

فقد وعد الله بالكشف عن آياته للباحثين عن الحقيقة الراغبين في معرفته بقوله سبحانه وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[٧].

وبين كذلك كيف منح هذه الآيات، وأيد بها رسله وأتباعهم في كل الديانات والرسالات على مر العصور في كل الأمم والجماعات.

قال سبحانه و تعالى: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٨]. و: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾[٩]. و: ﴿بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾[١٠].

و: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾[١١]. و: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾[١٢].

وقد أرى عزيراً آية قدرته على الإحياء حين أماته مائة عام.وأراه كيف حفظ له طعامه دون أن يفسد طيلة هذه المدة. وأشهده عيانا إحياء حماره بعد أن صار عظاما بالية.

وكذلك أرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض.

فكل الآيات إذا هي في مجال الشهود، والعطاء، والتأييد، والتحقق، عند كل من دعاهم الله إليه، وأكرمهم بمعرفته.

وما ذاك إلا ليثنيهم عن الالتفات لغيره، و الولاء والإذعان لسواه، حتى يتخلصوا من كل مظاهر الشرك، ويتحرروا من كل عبودية لغير الله.

وكذلك نجد في كلمة برهان أو سلطان ما نجده في هذه الكلمة.

## الإعجاز في الاصطلاح:

قال أبو البقاء الكفوي: "الإعجاز في الكلام: أن يؤدى المعنى بطريق أبلغ من كل ما عداه من الطرق".

و"إعجاز القرآن: ارتقاؤه في البلاغة إلى أن يخرج عن طوق البشر، ويعجزهم عن معارضته على ما هو الرأي الصحيح"[١٣].

هذا التعريف الذي ذهب إليه أبو البقاء قد استمده من أحد معاني الإعجاز في اللغة التي ذكرها ابن منظور في لسان العرب حيث قال:"الإعجاز: هو الفوت والسبق.

يقال:أعجزني فلان أي سبقني وفاتني، وجعلني عاجزا عن طلبه وإدراكه"[١٤]

أقول:هذا المعنى للإعجاز الذي ذكره أبو البقاء ليس واقعيا بالنسبة للأدباء، الذين يشهد لهم بإجادة القول وبلاغة الأداء، فليس أحد ممن اشتهر في الشعر أو النثر قد وصف كلامه بالإعجاز رغم الجودة والابتكار.

ومعلوم كذلك أن طرق أداء المعاني في اللغة معروفة لدى الكل، ومشهود لهم التفنن في استعمالها.

فالإعجاز وصف خاص ملازم لكلام الله تعالى فحسب.ولم يوصف به أي كلام سواه رغم فصاحته وبلاغته. فإنه بالنسبة لكلام الله يظل قاصراً أمام ما يحمله القرآن من الخصائص والشؤون التي انفرد بها وحده.

وعليه نستطيع القول بأن إعجاز القرآن هو عبارة عن الصفات الذاتية لكلام الله المصبوغ بصبغته، والمترجم عن كمالات علمه وقدرته.

ذلك أن الكلام أي كلام إنما هو ترجمة لصفات، ومواهب، وواقع المتكلم به ينشر فيه أحواله، ويبث همومه وآماله. فالكلام إنما يسمو بسمو المتكلم به، ويرتقي عما عداه برقي صاحبه في قدراته وكمالاته.

فالكلام الإلهي بالنسبة لما سواه من الكلام، كالذات الإلهية بكل كمالاتها وقدسها بالنسبة لكل المخلوقات، الموسومة بالنقص، والعجز والاحتياج.

فليس الإعجاز إذاً في طريق أداء المعنى فحسب.فالقرآن الكريم قد نزل على أساليب العرب في التعبير، ولكنه في المعنى نفسه، وفي الكلمة ذاتها بما حملها من خصائص ذاته وشؤون كمالاته.

وأبو البقاء كاد يقترب من هذا الذي ذكرناه حين قال: والقرآن معجز من حيث إنه كلام الله مطلقا[١٥].

لكننا وجدناه ينفي كثيرا من وجوه الإعجاز المعتبرة في القرآن الكريم؛ كالإخبار عن المغيبات وعدم التناقض والاختلاف، وإيجاز اللفظ وكثرة المعنى[١٦].

مع أن هذه وغيرها هي من مظاهر صفات العلم والحكمة والقدرة.

فليس من أحد يستوي عنده علم الغيب بعلم الماضي والحاضر غير الله تعالى. وليس من أحاط بكل شئ علما وخبرة وله الحكم المطلق والأمر النافذ والإرادة الغالبة سواه.

قال سبحانه و تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[١٧].

ووجدناه كذلك يقرر أن إعجاز القرآن الكريم الذاتي لا يوجد في كل جزء منه، مثل: الحرف، والكلمة[١٨].

ولكنني أخالفه في هذا كذلك، فإن الله جلت قدرته إذا تكلم بالحرف نفخ فيه من روح عزته، وجلال قدرته ما يجعله بحرا مترامي الأطراف، يعجز البشر جميعا أن يسبروا غوره ويبلغوا ساحله بغير سلطان منه أو تعليم من لدنه.

أنظر إلى قوله سبحانه و تعالى: ﴿الم﴾[١٩].

كيف أشار الحق إليها بأنها كتاب لا ريب فيه، لازالت العقول صرعى أمام اكتناه سره، والإحاطة بعلمه، وإن كان في متناول كل من أورثهم الله الكتاب وبينه لهم بقدرته وحكمته.

وانظر إلى قوله سبحانه و تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[٢٠].

كيف جعل هذه الأحرف الثلاثة اسما لهذا الكتاب الخاص بهذه الخصائص، والذي هو من جملة كتب كثيرة تنزلت حقائقها على قلب النبي صلى الله عليه و آله وسلم هي مجموع سوره وآياته.. وكذلك الكلمة والآية القصيرة.

فقوله سبحانه مخاطبا حبيبه صلى الله عليه وسلم وكل من توجه إليه بهذا الخطاب: اقرأ، اعلم، انظر. كل منها يحمل إعجازا تتضاءل أمامه كل القدرات، والإمكانات المتاحة للأفراد والجماعات.

فهل يستطيع أحد أن يجعل قارئا لما يريده أن يقرأ بمجرد أن يقول له: اقرأ. وهو لا يستطيع القراءة أو الكتابة.

ولكن الله جلت قدرته قد جعل من نبيه بهذه الكلمة قارئا لكل ما سطرته يد القدرة في ألواح الوجود، عالما بحقائقها، مشاهدا لأسرار وحكمة الله من خلقها.

وهل أحد غير الله يستطيع أن يعطي من علمه المكنون من لم يتعاط أسباب العلم بمجرد قوله: اعلم، فيبز بعلمه أهل الأرض والسماء، ويجعله مرجعا في كل ما جهلوا، وحكما عدلا فيما فيه قد اختلفوا.

ثم انظر إلى قوله سبحانه و تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾(٢١). ﴿أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾(٢٢). ﴿أَلَمْ تَرَى إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾(٢٣).

هل أحد غير الله لو تكلم بمثل هذا الكلام، وخاطب من شاء به ممن لم يـر بالفعل ولم يشهد؟ يستطيع أن يشهده الواقع كما كان دون زيادة أو نقصان. كما أشهد الله نبيه بيت المقدس حين تعرض للسؤال فوضعه بين يديه، يحدثهم بما هو مشاهدة عيان.

ثم انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٢٤).

هل يستطيع أحد من الخلق جميعا بمثل هذا الطلب من أحد كائنا من كان أن يعلمه علم كل شيء؟ هذا إن كان يملك هذا العلم!.

فإذا كان من بداهة القول أن علم كل شيء إنما هو خاص بالله تعالى، لا شريك له في ذلك، ظهر لنا جليا سر الإعجاز في الآية، وعلم أن الكلام الإلهي كله معجز. وليس في مقدور البشر أن يحيطوا بمظاهر إعجازه ووجوه.

وإذا كان هذا الإعجاز في الحرف والكلمة والآية ظاهرا لا لبس فيه.فإنه كذلك في تآلف الحروف لتكوين الكلمة، وتآلف الكلمات لتكوين الآية. وتعانق الآيات لإتمام بناء السورة.

تماما كما هو الشأن في بناء الذات الإنسانية من الأعضاء حتى أدق ما يحويه بناؤه من كريات الدم، والجينات، والغدد المتناهية في الدقة؛ فإنها بالرغم من دخولها في جملة التركيب إلا أن لها وجودها الحق وخصائصها الذاتية التي لا تقلل من شأنها بل تجل قدرا عن درك ما يكتنفها من الأسرار ويناط بها من الأنوار.

# حقيقة الإعجاز القرآني

## الإعجاز الروحي في القرآن

كل هذا الذي ذكرنا، وإليه أشرنا،لا يكون له معنى ولا اعتبار إذا خلى الجسد كله من الروح القائمة، ذات الأثر الجلي في نظمه وتآلفه.

فإننا نرى كيف يعمل كل جزء، ويقوم بدوره على أتم وجه وأكمله،في تحقيق نظام من الوحدة في الهدف،والغاية رغم تعدد الأفراد العاملة، وتنوع واختلاف المهام والاختصاص بكل فرد منها.

وكذلك الأمر بالنسبة للقرآن الكريم، فإنه إذا لم تشهد روحه الفعالة القائمة في الأحرف والكلمات،الجامعة للسور والآيات في نظام من الوحدة الموضوعية، فإن المتعامل معه،كالمتعامل مع جسد ميت قد انفصل عن الواقع، وانقطع عن الأثر والتأثير.

وليكن معلوما أن القرآن الكريم بمجمل آياته وسوره إنما هو تصوير لهذه الروح الإلهية التي هي أكمل وأعظم روح نفخها الله في مخلوق من الكائنات جميعا.

فهي التي من أجلها أسجد الله ملائكته لآدم عليه السلام لما قامت به كنزا من كنوز الذات، ينشر من العلم المكنون الذي أودعه الله فيها ما خفي على كل الممكنات.

وهي مصدر وسر ما ظهر على أيدي الرسل من الآيات والمعجزات.

فإنها حين قامت بالصخرة الصماء أحالتها إلى ناقة متميزة عن كل النوق في الخصائص والآثار.فهي وإن أشبهتها في الشكل والمظهر لكنها تميزت عنها في الحقيقة والجوهر.

انظر إليها كيف تشرب مئات الأمتار المكعبة من الماء، هي على وجه التقدير ما يشربه القوم ودوابهم، ويحتاجونه إلى الاستعمال المنزلي وغيره.

مع أنها في حجم النوق لا يزيد حجمها من الشرب وتدره لبنا يكفي القوم.

وانظر إلى العصا ـ الآية الكبرى ـ التي أوتيها موسى عليه السلام حين قامت فيها هذه الروح كيف صارت حية بلعت الآلاف من الحبال والعصي ثم عادت كما كانت عليه دون زيادة في طولها أو حجمها. ولو أذن لها أن تبلع فرعون وجنده جميعا وتعود إلى ما كانت عليه بعد أن تحيلهم في عالم العدم والفناء لفعلت.

فهذه الروح ترينا عيانا وتشهدنا بيانا منقطع النظير مظاهر قدرة الله وحقائق كلماته. قال سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾(٢٥).

وهي الميزان المعتبر في الحكم بالموت والحياة على غير المعهود عن البشر في العديد من آيات الكتاب العزيز.

فنراه يحكم بالموت على كل من فقد هذه الروح من بني البشر ولو كانوا في أتم صحة وعافية،فيصف الكفار بقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾(٢٦).

وهو بذلك يجلي صورة بيانية غابت عن كل الأذهان،ليرينا في عالم الحس المشهود،حقيقة الحياة الربانية، التي أراد الله لعباده أن يحيوها في كنف روح الكتاب العظيم.

فقد شبه حياة الكائن البشري الفاقد لهذه الروح كمن يعيش منهم فاقدا لكل مقومات الحياة من سمع وبصر وإحساس وإدراك، وبمثل هذا وصفهم سبحانه وتعالى فقال: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾(٢٧).

فحياة كهذه أشبه بالعدم بالنسبة للحياة بهذه الروح.

وأمة تفقد مثل هذه المواهب والقيم، لا يكون لها وزن في الوجود ولا أثر ولا تستطيع أن تحيا إلا عالة على غيرها من الأمم.

بينما وجدنا أن كل من قامت فيه هذه الروح قد مشى فوق الصعاب، وتجاوز كل العراقيل وتحدى كل ما رآه البشر مستحيلا حتى ارتقى قمة المجد، وتنقل من نصر إلى نصر، حتى أورثه الله الأرض ومن عليها أو ما قدر له أن يعطيه.

وهذا هو الفارق بين حضارات الأمم المادية وحضارة القيم الدينية.

وانظر في المقابل كيف نهى الله عن القول لمن مات في سبيله أنه من الأموات، بل أكد على حياتهم حين قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾[٢٨]. ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[٢٩].

وتمعن في حقيقة إعجاز آي القرآن وعظيم عطائه، في قوله سبحانه و تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾[٣٠].

فمن ذا الذي يستطيع أن يعطي مثل هذا العطاء.ويمد بمثل هذا النور كل من يحسن الاتباع،ليتسع مدى بصره نطاق الأرض والسموات،حيث أمرهم بالنظر فيها، ولا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها.

قال سبحانه و تعالى: ﴿قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[٣١].

بل نجده في العطاء بلغ حدا جعل ما خص به أكرم الخلق عليه من بصيرة شهد بها كل الآيات التي تجاوزت نطاق الأرض والسموات، إلى ملكوت الجنان وغيرها من العوالم،ليجعلها متاحة لكل الأتباع.

حيث أذن لنبيه أن يعلن عن هذا الكرم الإلهي بقوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾[٣٢].

ثانياً: أنظر إلى الضمير ﴿إِنَّا﴾، ضمير المتكلم المعظم نفسه،كيف تجلت فيه عظمة العطاء المناسب لعظمة المعطي، التي تجل عن الوصف، لأن عظمة الله فوق كل ما تصورته العقول واحتملته الظنون لتجعل من حقيقة العطاء أمراً تحار في كمه وصفته كل أرباب العقول.

ثالثاً: قوله سبحانه: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ فقد رتب الصلاة على العطاء.لأن كل نوع من العطاء يحتاج إلى صلاة تليق به شكرا لله عليه،يقبلها الله ويرضى بها عنه.

فالذي أعطاه سبحانه علمه حقيقة الصلاة وأعانه عليها،بل جعلها أعظم متعة له في الدنيا، وسبيل راحة، وباب قرب ووصلة،كما قال صلى الله عليه وسلم: "وجعلت قرة عيني في الصلاة"[٣٤]. و"أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد"[٣٥].

انظر بربك إلى البون الشاسع بين عطاء العباد،وعطاء رب العباد. وانظر إلى ما في تكليف الله من الخير، والرحمة الذي هو عين العطاء.هذا فضلا عما في كلمة ربك من خصوصية في العطاء، ومقدار ما تحقق به من معرفة بربوبية الله لم يصل إليها أحد سواه.

لأن المعرفة بها إنما تكون بمقدار ما تسبغه عليه من منها، وتنشره من بهائها وحللها،كل هذا مستفاد من إضافة اسم الرب إلى ضميره صلى الله عليه وسلم حيث خصه الله بهذا التشريف في هذا المقام، وغيره في كثير من سور القرآن.

انظر بربك إلى هذا التناسق العجيب والتلاحم الفريد بين أحرفه وكلماته وإلى البحار الزاخرة من المعاني المبثوثة في طياته.

ولو أردنا أن نبسط القول لتحول المثال إلى بحث أو كتاب،وأي بحث،أو كتاب يمكن أن يحوي معاني كلماته وآياته؟

والله جل جلاله يقول: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[٣٦].

فقد أودع فيها من أسرار قدرته وبديع حكمته وأنوار هدايته ما ليس له نهاية من أجل ذلك كان النعيم خلودا بلا نهاية.

فإن مواهبه سبحانه في الدنيا والآخرة لاحد لها ولا ند. فمن الذي يستطيع أن يتجرأ على القول مع قوله، وهو في غاية العجز والفقر.

## خصائص القرآن الذاتية:

بقي أن نشير إلى خصائص القرآن الذاتية التي تنبثق جميعها من خصوصية هذه الروح فنقول: إنّ أجمع ما يصور لنا هذه الخصائص التي تميزه عن أي كتاب سواه وترينا بوضوح كيف يعجز الثقلين جميعا عن مضاهاته قول الله سبحانه و تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا﴾[٣٧].

نزلت هذه الآية حين طلب الكفار من النبي صلى الله عليه وسلم بعض الآيات الحسية كتسيير جبال مكة وجعلها سهولا، تجري فيها الأنهار وتنبثق منها العيون، كما طلبوا إحياء بعض موتاهم،وإنما كان هذا الطلب بناء على زعمهم أو في الحقيقة على جهلهم بأن القرآن الكريم لا يشمل على الخوارق ولا يكون سببا في حصولها فجاء الجواب جليا، يبين هذه الخصائص الذاتية للقرآن الكريم ويصرح بأنه هو المصدر لكل الخوارق بل هو آية الآيات جميعا،فمن لم يكفه القرآن لم يجد في سواه كفاية كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾[٣٨].

يقول أبو السعود رحمه الله في تفسير الآية السابقة: لو أن قرآنا سيرت به الجبال: أي بإنزاله،أو بتلاوته عليها،وزعزعت عن مقارها. كما فعل ذلك بالطور لموسى عليه السلام.

أو قطعت به الأرض: أي شققت وجعلت أنهاراً، وعيوناً، كما فعل بالحجر حين ضربه عليه السلام بعصاه.

أو كلم به الموتى: أي بعد أن أحيي بقراءته عليها كما أحييت لعيسى عليه السلام، لكان ذلك هو هذا القرآن.لكونه الغاية القصوى في الانطواء على عجائب آثار قدرة الله تعالى، وهيبته عز وجل[٣٩].

كقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٤٠]. أ هـ.

ومعلوم أن الإنزال هذا إنما هو في تنزل روح القرآن،أما صورته فإن الجبل يحمل ملايين النسخ دون أن يتأثر من وضعه عليه.

وهذه الحقيقة هي التي تنزلت على قلب النبي صلى الله عليه وسلم ولكنه كان أثبت من الجبل حيث رفع الله به قدره وشرح صدره ونور قلبه.

وإذا كنا نتحدث عن الخصائص التي تميز بها هذا الكتاب التي مرجعها إلى الروح الذاتية السارية في هيكلة حروفه وكلماته؛ فإن هذه الآية تعتبر من أجمع ما دلت عليه الآيات من الخصائص التي يتعذر أن تكون لكتاب آخر أو لكلام سوى كلامه.

ومع هذا فإننا نجد آيات الكتاب العزيز تتحدث عن كثير من الخصائص التي انفرد بها القرآن الكريم فضلا على كونه الكتاب الجامع لكل ثمرات الكتب المنزلة على الرسل والأنبياء السابقين،ومن هذه الخصائص ما يأتي:

**أولا:** أنه يخرج كل من أقبل عليه من الأفراد والأمم من الظلمات بشتى أنواعها وصورها إلى النور بكل ما فيه من الخير والعلم والمعرفة،يقول سبحانه و تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[٤١].

**ثانياً:** إنه كتاب الهداية المطلقة لكل ما يحتاجه الناس في حياتهم، وما يتطلعون إليه من تحرر ورقي، وحل لما استعصى عليهم من مشاكلهم، وما ينشدونه من سمو روحي، في أعلى مقام، وأرفع منزلة،يقول سبحانه وتعالى: ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[٤٢].

فحقيقة إعجاز القرآن التي تتمثل في جميع سوره وآياته هي أنه مشكاة أسماء الله وصفاته ،المعرب عن كمالات ذاته ،المظهر لبديع أفعاله وشؤون تجلياته.

وإذا كان الباحثون في إعجاز القرآن قد قرروا أن الإعجاز الذي وقع به التحدي متمثل في أقصر سورة أو ما يعادلها من الآيات. ولكن أحدا منهم حسب اطلاعي، لم يحاول الكشف عن وجه الإعجاز وحقيقة التحدي في كل سورة من سوره، مع أن وجه التحدي في كل سورة يختلف ،ويتنوع عنه في السورة الأخرى، فضلا عن تنوعه في الكلمات والآيات.

وليس غير هذا الذي ذكرنا من حقيقة الإعجاز ما يجعل الأمر واضحا ومتناولا بين أيدي الباحثين، مع ما يعطيه من فهم أدق ،ومعرفة أجل وأعظم للمتدبرين لآياته.

وهذا مثال يرينا وجه الإعجاز سافرا لا يستطيع من لديه مسحة من عقل أن يفكر في تحدي القرآن الكريم ،ولا يملك من يحترم نفسه إلا أن يقر له بالفضل ويجله أن يكون صادرا عن بشر.

**المثال:** أقصر سورة في القرآن (سورة الكوثر). قال سبحانه و تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾[٣٣].

وجوه الإعجاز في هذه السورة أكثر من أن تحصى، ومعانيها أجل من أن تستقصى

**أولاً:** إذا نظرت إلى أهل العطاء، فإن أحدا لا يمكن أن يعطي إلا مما يملك. ويستحيل أن يعطي شيئا لا يملكه ولا قدرة له عليه. وإن العطاء الذي تكلمت عنه السورة يستحيل على أحد من البشر أن يعطيه لأنه لا يملكه وهو في الوقت نفسه خارج عن نطاق حدود قدرته.

فهل يستطيع مخلوق أن يعطي أحدا نهرا في الجنة، ماؤه أبيض من الثلج، وأحلى من العسل، من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدا.

أو أن يتفضل على أحد بالنبوة أو الرسالة إلى غير ذلك مما احتملته الكلمة من معانٍ زادت على خمسة عشر نوعا من العطاء نص علماء التفسير على أنها جميعا قد أعطيت للنبي صلى الله عليه وسلم.

**ثالثاً**: إنه مفتاح أبواب الرحمة العامة والخاصة وسر الشفاء الظاهر والباطن لكل ما استعصى من الأمراض النفسية والاجتماعية ، والعلل القلبية والجسمية ،يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٤٣).

**رابعاً**: إنه الحصن الحصين الواقي من كل الشرور،والآثام،الكابح لكيد الشيطان المبدد لكيد الأعداء،الكاشف للقلب بنوره كل الحقائق والمخاطر التي يتعرض لها بنو الإنسان.

وما هذا إلا غيض من فيض،وقطرة من بحار زاخرة، فإعجازه منقطع النظير، والذي لا بد من التنبيه عليه في الختام أن نلفت نظر الأمة التي خصها الله بهذا الشرف العظيم أن تقبل بكليتها على كتاب ربها تنشئ عليه الأجيال،وتغرس في قلوبهم أنوار هذه الكلمات ليعيشوا في كنفها أكرم وأعز حياة فلا يصلح حال هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

والله وحده الهادي إلى سواء السبيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه تسليماً كثيرا.

## الهوامش:

(١) الآية ٨١ من سورة الزخرف.
(٢) الآية ٥٢ من سورة الشورى.
(٣) ابن فارس. معجم مقاييس اللغة ج٤ص٢٣٢. تحقيق عبد السلام هارون دار الفكر - بيروت. الطبعة الأولى ، ١٣٩٩هـ - ١٩٦١م.
(٤) الآية ٣١ من سورة المائدة.
(٥) المفردات في غريب القرآن. ص ٣٢٢. مكتبة مصطفى الحلبي. ١٣٨١هـ - ١٩١٦م.
(٦) الآية ٢ من سورة التوبة.
(٧) الآية ٥٣ من سورة فصلت.
(٨) الآية ١ من سورة الإسراء.
(٩) الآية ١٨ من سورة النجم.
(١٠) الآية ٣٥ من سورة القصص.
(١١) الآية ٤١ من سورة آل عمران.
(١٢) الآية ١٧٥ من سورة الأعراف.
(١٣) أبو البقاء الكفوي. الكليات ص١٥٠. مؤسسة الرسالة. الطبعة الثانية ١٤١٢هـ - ١٩٩٣م.
(١٤) محمد بن مكرم بن منظور المغربي. لسان العرب ج٥ص٣٦٩-٣٧٣. دار الفكر. الطبعة الأولى.
(١٥) أبو البقاء. الكليات ص١٥٠.
(١٦) السابق: ص١٥٠.
(١٧) الآية ٨٢ من سورة النساء.
(١٨) أبو البقاء: الكليات ص١٥٠.
(١٩) الآية ١ من سورة البقرة.
(٢٠) الآية ١ من سورة إبراهيم.
(٢١) الآية ٦ من سورة الفجر.
(٢٢) الآية ١ من سورة الفيل.
(٢٣) الآية ٤٥ من سورة الفرقان.
(٢٤) الآية ٢٨٢ من سورة البقرة.
(٢٥) الآيتان ٢٦، ٢٧ من سورة الرحمن.
(٢٦) الآية ٢١ من سورة النحل.
(٢٧) الآية ١٨ من سورة البقرة.
(٢٨) الآية ١٥٤ من سورة البقرة.
(٢٩) الآية ١٦٩ من سورة آل عمران.
(٣٠) الآية ١٢٢ من سورة الأنعام.

(٣١) الآية ١٠١ من سورة يونس.
(٣٢) الآية ١٠٨ من سورة يوسف.
(٣٣) سورة الكوثر.
(٣٤) مسند الإمام أحمد ج٣: ١٢٨. الطبعة الثانية، ١٩٧٨. المكتب الإسلامي، بيروت.
(٣٥) مسند الإمام أحمد ج١: ٨٢.
(٣٦) الآية ١٠٩ من سورة الكهف.
(٣٧) الآية ٣١ من سورة الرعد.
(٣٨) الآية ٥١ من سورة العنكبوت.
(٣٩) تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم.مطبعة محمد صبيح مصر ج٣ ص١٠٩-١١٠.
(٤٠) الآية ٢١ من سورة الحشر.
(٤١) الآية ١ من سورة إبراهيم.
(٤٢) الآيتان ١، ٢ من سورة البقرة.
(٤٣) الآية ٨٢ من سورة الإسراء.